

بنو الجراح ، وبدائتهم ، وما سبقهم من إمارات طائية :

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري *

لعلها تأتي مناسبة تحقيق عن بني حميد الطائيين ، وأكتفي الآن بحديث عن إياس ابن قبيصة ، فهو مقدمة الإمارات الطائية منذ رحلوا من شمال جزيرة العرب ، ثم أتكلم عن بني الجراح .

أما إياس فقد قال ابن دريد : (إياس بن قبيصة بن أبي غفر بن النعمان بن حية بن سعنة : ملك الحيرة بعد النعمان ، وهو الذي كان كسرى يتيمن به ، وهو الذي هزم الروم لما نزلوا في أيام برويز) (١) .

وذكره ابن حبيب تحت عنوان : من حرم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام (٢) .. وقال : «قبيصة بن إياس بن أبي غفر بن النعمان بن حية : أخو بني هني بن عمرو بن الغوث بن طيئ .. وفي باب آخر :

مهما يكن ريب المنون فإنني أرى قمر الليل المعذب كالفتى

(١) الاشتقاق ، ص ٣٨٦ .

(٢) المحبر ، ص ٢٣٨ .

* محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل .

- ماجستير من معهد القضاء العالي في التفسير ، وله مشاركات عديدة في التأليف والمقالة والإذاعة ، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ورئيس الشؤون الثقافية بجمعية الثقافة والفنون ، ورئيس تحرير مجلة التوباد ، وأول رئيس للنادي الأدبي بالرياض .

بهل صغيراً ثم يعظم ضوؤه وصورته حتى إذا ما هو استوى
تقرب يخبو ضوؤه وشعاعه ويمسح حتى يستسر فما يرى
كذلك زيد المرء ثم انتقاصه وتكراره في إثر بعدما مضى»^(١)

وترجم له تحت عنوان : أسماء ملوك الحيرة .. فقال : «إياس بن قبيصة الطائي ومعه النخيرجان»^(٢) تسع سنين .

ولسنة وثمانية أشهر مضت من ملك إياس بن قبيصة بعث الله عز وجل محمداً ﷺ رسولاً^(٣) ، وذلك لست عشرة سنة مضت من ملك أبرويز بن كسرى .

وكانت وقعة ذي قار التي انتصفت فيها العرب من العجم ، وذلك برسول الله ﷺ في ملك إياس بن قبيصة .. ورسول الله ﷺ بمكة قبل أن يهاجر»^(٤) .

(١) المحبر ، ص ٢٣٨ .

(٢) أي ويشاركه الحكم النخيرجان ، وعن النخيرجان قال الدكتور جواد علي وهو يتحدث عن تولية كسرى له مكان النعمان بكتابه المفصل / ٢٩٣ : «فعينه ملكاً على الحيرة ، وعين معه رجلاً فارسياً اختلفوا في اسمه ، فقالوا : الهمرجان والبحرجان والنخرجان والتخرجان» .. وهو اختلاف يسير يعود سببه على ما يظهر إلى عدم تمكن النساخ أو الرواة من ضبط الكلمة .. والظاهر أنها وظيفة ومركز حسبها الرواة اسم علم ؛ فأطلقوها على شخص» .
قال أبو عبد الرحمن : في تاريخ ابن جرير ٢/٢١٣ : النخيرجان ، وعند حمزة الأصفهاني ص ٨٦ البحران الفارسي ، وفي الكامل لابن الأثير ١/٢٩٢ النخيرجان ؟ .

قال أبو عبد الرحمن : لا أحقق هذه المسألة الآن ، وإنما أذكر مسألتين :
أولاهما : أنني لم أجد في الفارسية ما يقارب هذه الألفاظ غير نخجير بمعنى الصيد ، ونحجير جوي بمعنى شغوف بالصيد ، ونخجيرزن بمعنى صياد شجاع ، ونخجيرگاه بمعنى مصيدة ، ونحجير كان بمعنى أحد الأخان القديمة .. انظر : المعجم الذهبي ، ص ٥٦٤ .

وأخراً : أن هناك علماً طائياً اسمه الحدرجان .. قال ابن حزم في جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٠٢ عن أعلام بني سنيس : «رافع بن عميرة بن جابر بن حارثة بن عمرو - وهو الحدرجان - بن مخضب» .

(٣) نص على ذلك ابن جرير في تاريخه ٢/٢١٣ .. وعنه نقل ابن سعيد في نشوة الطرب ١/٢٨٥ ، وانظر : ص ٢٨٢ .. وقال ابن الأثير في الكامل ١/٤٦ : «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي عاملاً للفرس على العرب» .

(٤) المحبر ، ص ٣٦٠ .

وقال ابن قتيبة : « ثم خرج الملك عن آل منذر ، ووُلِّي كسرى إياس بن قبيصة الطائي ثمانية أشهر ، واضطرب أمر كسرى وشغلوا ، وجاء الله بالإسلام ، ومات إياس بن قبيصة بعين التمر ، وفيه يقول زيد الخيل » (*) .

فإن يكن رب العين خلى مكانه فكل نعيم لا محالة زائل» (١)

قال أبو عبد الرحمن : تولى إياس الملك قبل ذلك أشهراً من قبل قابوس بن المنذر وإخوته .. قال ابن جرير عن قابوس : « فلما مات المنذر بن المنذر وترك ولده هؤلاء الثلاثة عشر : جعل على أمره كله ابن قبيصة الطائي [وملكه كسرى رأيته] (٢) ؛ فكان عليه أشهراً (٣) وكسرى في (٤) طلب رجل يملكه على العرب » (٥) .

وملك إياس بعد مهلك النعمان مما اختلف المؤرخون في تحديده ؛ فقال الجمهور : حقبة ملكه تسع سنين (٦) .. وقال حمزة الأصفهاني : سبع سنين (٧) .. وقال ابن الأثير : أربع عشرة سنة (٨) .. أما ابن قتيبة : فزعم أنها ثمانية أشهر ، وزعم أنه ظل على ملكه حتى جاء الإسلام (٩) .

(*) هذا الذي سماه رسول الله ﷺ زيد الخير رضي الله عنه .

(١) المعارف ، ص ٦٥٠ ، والأخبار الطوال .

(٢) تكملة من الأغاني فيما رواه عن هشام الكلبي (محقق تاريخ ابن جرير محمد أبو الفضل إبراهيم) .

(٣) في الأغاني : فمكث مملكاً عليها أشهراً (أبو الفضل) .

(٤) كذا في أصول الطبري ، وتجارب الأمم ٢٣٨/١ .. وفي الأغاني بعده : فلم يجد أحداً يرضاه ، ففجر ، فقال : لأبعثن إلى الحيرة اثني عشر ألفاً من الأساورة ، ولأملكن عليهم رجلاً من الفرس ، ولأمرنهم أن ينزلوا على العرب في دورهم ، ويملكوا عليهم أموالهم ونساءهم .. وكان عدي بن زيد واقفاً بين يديه ، فأقبل عليه ، وقال : ويحك ياعدي : من بقي من آل المنذر ! [أبو الفضل] .

(٥) تاريخ ابن جرير ١٩٤/٢ .. وفي نشوة الطرب ٢٨٢/١ : توهم ابن سعيد أن الذي ولي إياساً هو كسرى .. ولم يفتن لذكر قابوس في سياق ابن جرير .

(٦) انظر : المحبر لابن حبيب ، ص ٢١٣/٢ ، ورجَّحه الدكتور عبد العزيز سالم في كتابه « تاريخ العرب في عصر الجاهلية » ، ص ٢٨٣ .

(٧) سني ملوك الأرض ، ص ٨٦ ، ونشوة الطرب ٢٨٥/١ .

(٨) الكامل ٤٩١/١ .

(٩) المعارف ، ص ٦٥٠ .

قال أبو عبد الرحمن : الأشهرُ خاصة بالمدة الأولى عندما ولاه قابوس بن المنذر الأكبر .. قال أبو الفرج الأصفهاني عن الولاية الأولى : فمكث ملكاً عليهم أشهراً .

وقبل الترجيع بين الأقوال ينبغي البحث عن آخر عهد إياس بولاية الحيرة .. قال ابن خلدون : « ولما صالح إياس بن قبيصة المسلمين ، وعقد لهم الجزية : سخطت عليه الأكاسرة وعزلوه ، فكان ملكه تسع سنين ، ولسنة منها ثمانية أشهر كانت البعوث » (١) .

وقبله ابن جرير قال : « ثم ولي إياس بن قبيصة الطائي (ومعه النخيرجان) تسع سنين في زمن كسرى بن هرمز .. ولسنة وثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة ؛ فبعث النبي ﷺ فيما زعم هشام بن محمد .. ثم استخلف آزاذبة بن ماهان بن مهر بنداذ الهمداني سبع عشرة سنة .. من ذلك في زمن كسرى بن هرمز أربع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وفي زمن شيرويه بن كسرى ثمانية أشهر ، وفي زمن أرنشير بن شيرويه سنة وسبعة أشهر ، وفي زمن بوران دخت بنت كسرى شهراً .. ثم ولي المنذر بن النعمان بن المنذر - وهو الذي تسميه العرب الغرور ، الذي قتل بالبحرين يوم جؤاثي ، إلى أن قدم خالد بن الوليد رضي الله عنه الحيرة - ثمانية أشهر : فكان آخر من بقي من آل نصر بن ربيعة ، فانقرض أمرهم مع زوال ملك فارس » (٢) .

قال أبو عبد الرحمن : المصالحة كانت في عهد أبي بكر الصديق على يد خالد بن الوليد رضي الله عنهما سنة ١٢ هـ (٣) .

قال أبو عبد الرحمن : أجمل الزركلي تاريخ حياته بقوله : « إياس بن قبيصة الطائي: من أشرف طيئ وفصحائها وشجعانها في الجاهلية .. اتصل بكسرى أبرويز فولاه الحيرة ، ثم نحاه وولى النعمان أبا قابوس .

(١) تاريخ ابن خلدون ٣٢٢/٢ .

(٢) تاريخ ابن جرير ٢١٣/٢ - ٢١٤ ، وانظر : تاريخ سني ملوك الأرض ، ص ٨٦ - ٨٨ ، ونشوة الطرب ٢٨٦/١ ، وتاريخ ابن خلدون ٣١٨/٢ .

(٣) الكامل ٣٨٤/١ و ٣٩٠ .

وتعدى الروم تخوم العجم في أيام أبرويز ؛ فوجه إياس لقتالهم ، فظفر بهم ، وبالع كسرى في تقديمه ، ثم كانت غضبة أبرويز على النعمان وقتله إياه ؛ فأعاد إياساً إلى ولاية الحيرة سنة ٦١٣ م .. وحدثت في أيامه وقعة (ذي قار) التي انتصف بها العرب من العجم ، وكان على العجم إياس ، فانهزم ولم يبرح والياً على الحيرة إلى أن مات» ^(١) .
وعن بداية صلة كسرى بالنعمان قال الدينوري : «ولما سار كسرى ^(٢) من الدير سار يوماً وليلة ، وتلقاهم أعرابي ، فوقفوا عليه ، فسأله كسرى (وكان يحسن بالعربية شيئاً) : من هو ؟ .. فأخبر أنه من طيئ ، وأن اسمه إياس بن قبيصة .

فقال له : أين الحي ؟ .. فقال : قريب .. قال : فهل من قرى ؛ فقد بلغ منا الجوع ؟ .. قال نعم .. فعدلوا معه إلى الحي ، فنزلوا به ، وسرحوا خيلهم ترتع ، وأقاموا عنده يومهم ، فأحسن قراهم ، وزودهم ، وخرج بهم حين أمسوا يدلهم الطريق حتى أخرجهم لثلاث بيالس ^(٣) من شاطئ الفرات .. ثم انصرف» ^(٤) .

وقال ابن خلدون : «وذلك أن كسرى لما قتل النعمان استعمل إياس بن قبيصة الطائي على الحيرة مكان النعمان ؛ لليد التي أسلفتها طيئ عند كسرى يوم واقعة بهرام على أبرويز ، وطلب من النعمان فرسه ينجو عليها ، فأبى ، واعترضه حسان بن حنظلة بن حية ^(٥)

(١) الأعلام ٣٣/٢ .. وينظر عن إياس : النسب الكبير، ص ١٥٥ ، والمعارف، ص ٦٥٠ ، والموفقيات، ص ٤٠٤ / ٤٠٧ ، والاشتقاق، ص ٣٦٨ ،

والمهجع، ص ٢٢ - ٢٣ ، والتنبيه والإشراف، ص ١٥٨ و ٢٠٧ - ٢٠٨ ، والعقد الفريد ١١١/٦ - ١١٣ ، وص ١٤٥/٢ (معارف) ، وشرح الحماسة للبربري ٢٠٦/١ ، وشعراء النصرانية ١٣٥/١ - ١٣٨ ، ومعجم الشعراء المخضرمين، ص ٤٢ ، وتاريخ العرب في الجاهلية للدكتور عبدالعزيز سالم ، وكتابه الآخر تاريخ الدولة العربية ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٢) يعني أبرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان .

(٣) بيالس : مراحل السفر [محقق الأخبار الطوال] .. قال أبو عبد الرحمن : ولم أعرف أصلها بعد .

(٤) الأخبار الطوال ، ص ٩١ .

(٥) في الأصل حنة - بالمنقوطين - وقد ذكرت في عدد من المناسبات أن طبقات تاريخ ابن خلدون ونسخه لا يعتمد عليها ، وأنتني أصححه بغيره .. وحسان ذكره ابن الكلبي في النسب الكبير، ص ١٥٦ ، فقال : «حسان فارس الضبيب بن حنظلة ابن أبي رهم بن حسان بن حية» .

الطائي وهو ابن عم إياس بن قبيصة ؛ فأركبه فرسه ونجا عليه ، ومر في طريقه بإياس فأهدى له فرساً وجزوراً ، فرعى له أبرويز هذه الوسائل ، وقدم إياساً مكان النعمان»^(١).

وقال الدكتور جواد بشرح بلاء إياس في حرب الفرس : « وذكر الأخباريون أن كسرى بن هرمز كان يتيمن بإياس ، ويفزع إليه في حروبه ويعجبه ، وأنه استنجد به في حربه مع قيصر ، فتعقبه حتى أدركه في موضع ساتيديما ، فأثنى القتل في جنوده ، ونجا قيصر في خواص من أصحابه بصعوبة ، وأصيب إياس بمرض في هذه السفرة ، وأشار الأعشى في شعره إليه »^(٢).

وللأعشى قصائد في مدح إياس ، وكانت له صلة به ، وقد أغدق عليه نعمه^(٣) . وفي رواية ذكرها أبو الفرج الأصفهاني: أن كسرى كان قد عين إياساً على عين

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٢٠ ، وعن سبب استعمال كسرى لإياس انظر : تاريخ جرير ٢/ ٢٠٦ - ٢٠٧ عن أبي عبيدة ، ونصه : « كان كسرى لما هرب من بهرام مر بإياس بن قبيصة فأهدى له فرساً وجزوراً فشكر ذلك له كسرى ... » وفي كامل ابن الأثير ١/ ٤٨٨ : « وكان كسرى اجتاز به لما سار إلى ملك الروم فأهدى له هدية » : فهذا يعني أن الهدية في مسار كسرى إلى ملك الروم وليست في مسار منهزمهم .

(٢) ديوان الأعشى ، ص ١٥٩ (طبعة كابر) ، ومعجم البلدان ٦/ ٥ مادة ساتيما (جواد) .

(٣) ديوان الأعشى القصائد ٢١ و ٣٦ و ٥٥ و ٧٩ (جواد) .

قال أبو عبد الرحمن : مدائح الأعشى لإياس هي قصيدته الحانية التي مطلعها :

ما تعيف اليوم في الطير والروح من غراب البين أو تيس بسرح

وقصيدته التي مطلعها :

ويبتك من سنيس في الذرى إلى العز والمجد أهابها

وقصيدته التي مطلعها :

ألم خيال من قتيلة بعدما بلها من حبلنا تنصرما

وقصيدته التي مطلعها :

عرفت اليوم من تباً مقاما بجو أو عرفت لها خياما

انظر : ديوان الأعشى ، ص ٣٨ - ٢٤ و ١٥٩ - ١٦٢ و ١٨٦ - ١٩٣ .. والقصيدة الميمية في مدح قيس بن معدي كرب (ابن عقيل).

التمر وما والاها من الحيرة ، وأطعمه ثلاثين قرية على شاطئ الفرات ^(١) .
ويظهر من هذه الرواية ، ومن رواية وفاته في عين التمر ، ووجود أخيه فيها : أن
عين التمر كانت من مناطق نفوذ هذه الأسرة حتى في أيام ملك آل الحنم ^(٢) .
وبمعركة ساتيد افتخر أبو تمام فقال :

ومن ساتيد ما برواز فلتت شبا فخر فسيح الطائفين
بلا فيها إياس كل لدن وكل مصمم في العظم لين

قال التبريزي : هذه الواقعة لإياس بن قبيصة الطائي بقيصر وأصحابه بساتيدما ،
وهو جبل يجئ منه نهر ، وهو أصل دجلة .. وحديثها أن كسرى بن هرمز كان يبعث كل
سنة شهريار الأصهبذ إلى الروم في جيش ، فينكي فيهم ، فبعثه سنة فأصاب فيها خزان
الروم ، فلما وصلت إليه حسده كسرى ، وخاف على ملكه منه ، فبعث إليه رجلاً ليقنتله ،
فأفشى ذلك الرجل سره إليه ، وعرفه ما أنفذ فيه نحوه ، فبعث شهريار إلى قيصر وعرفه
سوء خيانة كسرى وغدره ، وحثه على قصده واثقاً بأنه لن يخذله ، وضمن له ما يحتاج
إليه عاجلاً لتجهيز الجيوش ؛ فسار قيصر في أربعين ألفاً وخلف شهريار في أرض الروم
بعد أن وكد عليه العهود ، فلم يعلم كسرى حتى دهمه جيش قيصر ، فلما رأى ذلك علم
أن شهريار دبر عليه ذلك ، وكانت جنوده متفرقة ، فاحتال عند ذلك كسرى ، وعمد إلى

(١) الأغاني (١٣٤/٢١) .. وقال الدكتور جواد في موضع آخر بالمفصل ٤٨١/٨ عن تاج العروس : وترد في كتب أهل
الأخبار لفظة (طعمة) بمعنى المأكلة .. وورد أن النعمان بن المنذر جعل لبني لأم من طين ربع الطريق طعمة لهم ؛ لصهر
كان لهم عنده .. أي أن النعمان جعل حق الطريق لهم يجيئون من المارة جبايتهم فيأخذونها لهم ولا يعطونها للملك ؛ لأنه
قد تنازل عن حقه فيها إليهم .. يقال فلان تجبى له الطعم .. أي الخراج والإتاوات .
وكان من عادة الملوك التنازل عن حق جباية الإتاوة عن بعض الأرضين أو الطرق لسادات القبائل ؛ تأليفاً لقلوبهم ،
وإسكائاً لألسنتهم ، ولأنهم يعلمون أن نفوذهم على تلك الأرضين لم يكن ثابتاً قوياً ، بل كان بالاسم فقط ، وأنهم لا
يتمكنون من أخذ جبايتهم ؛ لذلك كانوا يتظاهرون أمام الناس بالتنازل عن حقهم في تلك الضرائب .
قال أبو عبد الرحمن : وانظر الموفقيات ، ص ٤٠٣ . وقد وردت طعمة - تحريقاً ، أو تطبيعاً - بلفظ : طعة ! .
(٢) المفصل ٢٩٣/١ عن المعارف والمحرر .

قس نصراني مستبصر في دينه ، وقال : إني كاتب معك كتاباً لطيفاً إلى شهريار ، فانطلق به إليه ، فإن قيصر وأصحابه لا يتهمونك ، وأعطاه على ذلك ألف دينار عالماً بأن القس يميل إلى قيصر ، ويعدل بكتابه إليه ويعرضه عليه ، وكتب في الكتاب : «إني كتبت هذا وقد دنا قيصر مني ، وقد أحسن الله إلينا وإليك بصنيعك ، وإني فرقت الجيوش له من كل جانب ، وأنا تاركه حتى يدنو من المدائن ، ثم أثب عليه بالخيول في كذا ، فإذا كان ذلك اليوم فأغر أنت على من قبلك ، فإنه استئصالهم» .. فحمل القس كتابه إلى قيصر ودفعه إليه ، وعرفه ما أعطي وأنفذ فيه ، فلما قرأ الكتاب لم يشك أن الأمر حق : فرجع منهزماً من غير حرب ، فأتبعه كسرى إياس بن قبيصة وكان يتيمن به ، فوضع فيهم السلاح ، وقتلهم ، ونجا قيصر في خواص من أصحابه : ولهذا ملكه كسرى على العرب بعد النعمان بن المنذر» ^(١) .

وقال أبو نواس مفتخراً أيضاً :

فاخر بقحطان غير مكتئب فحاتم الجود من مناقبها
إذ لاذ برويسز عند ذاك بنا والحرب تُمرى بكف حالها
يذب عنه بنو قبيصة (م) بالخطى والشهب من قواضها
ويوم ساتيدهما ضربنا بني (م) الأصفر والموت في كتابها ^(٢)

وقال الأعشى :

وهرقلاً يوم ذي ساتيدهما من بني برجان ذي اللباس رجح ^(٣)

وقال الدكتور جواد علي : «وآل قبيصة من الأسر المعروفة في الحيرة ، وقد سبق أن عُهدت إلى إياس إدارة مهمات الحكومة بعد وفاة المنذر ، فمكث أشهراً ملكاً يدير أمور

(١) ديوان أبي تمام يشرح التبريزي ٣/٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٢) ديوان أبي نواس ، وانظر : طبقات الشعراء لابن المعتز ، وانظر مادة ساتيدهما في : معجم ما استعجم ٧١١/٢ - ٨١٢ .

ومعجم البلدان ٣/١٦٨ - ١٦٩ .

(٣) ديوان الأعشى ، ص ٩٠ .

الملك إلى أن أعطى التاج للنعمان أبي قابوس . ويظهر من روايات الأخباريين أنه كان مقرباً من كسرى ؛ لأنه ساعده حينما هرب من بهرام ، وأهدى إليه فرساً وجزوراً ، ولأنه عاونه في نزاعه مع الروم .. فلما فر أبناء نعمان بعد مقتل والدهم ، وتشتت شمل البيت المالكة مدة : تذكر كسرى فضل هذا الرجل عليه ، فعينه ملكاً على الحيرة .

قال الدكتور جواد علي : « ولا نعرف شيئاً مهماً قام به إياس في أثناء توليه الملك ، ويظهر أن حكمه لم يكن يتجاوز هذه المنطقة التي أشار إليها الأخباريون إلى قيامه بغارات على عرب الشام .. أما الشيء المهم الذي وقع في أثناء توليه الحكم فهو يوم ذي قار »^(١).

وعن قصة ذي قار قال أبو الفرج الأصفهاني : « قال : ودعا كسرى إياس بن قبيصة الطائي (وكان عامله على عين التمر^(٢)) وما والاها إلى الحيرة^(٣) ، وكان كسرى قد أطعمه ثلاثين قرية على شاطئ الفرات ، فأتاه في صناعته من العرب الذين كانوا بالحيرة ، فاستشاره في الغارة على بكر بن وائل ، وقال : ماذا ترى ، وكم ترى أن تُغزيهم من الناس؟ .

فقال له إياس : إن الملك لا يصلح أن يعصيه أحد من رعيته ، وإن تطعني لم تعلم أحداً لأي شيء عبرت وقطعت الفرات ، فيروا أن شيئاً من الأمر قد كريك ، ولكن ترجع وتضرب عنهم ، وتبعث عليهم العيون حتى ترى غرة منهم ، ثم ترسل حلبة من العجم فيها بعض القبائل التي تليهم ، فيوقعون بهم وقعة الدهر ، ويأتونك بطلبتك .

(١) المفصل ٤٥٤/٨ ؟ .

(٢) عين التمر بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة .

(٣) انظر عنها : معجم ما استعجم ٣١٩/١ ، ومعجم البلدان ٣٢٨/٢ - ٣٣١ ، والروض المعطار ، ص ٢٠٧ .. قال ياقوت

« بالكسر ثم السكون ورا . : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف » .

قال أبو عبد الرحمن : لعل ما والى عين التمر إلى الحيرة هو ما تملكه تبع أبو كرب فيما نقله أبو عبيد الحميري عن

الهمذاني قال : « كانوا يملكون ما بين الحيرة والأنبار وهي ونواحيها وعين التمر وأطراف البراري : العمير ، والققطانة ،

وخفية » .. على أن ابن جرير الطبري وغيره : ينفون تجاوزهم مخاليف اليمن .

فقال له كسرى : أنت رجل من العرب ، وبكر بن وائل أخوالك - وكانت أم إياس
أمامة بنت مسعود أخت هاني بن مسعود - ، فأنت تتعصب لهم ، ولا تألوهم نصحاً .
فقال إياس : رأي الملك أفضل .

فقام إليه عمرو بن عدي بن زيد العبادي - وكان كاتبه وترجمانه بالعربية وفي أمور
العرب - فقال له : أقم أيها الملك ، وابعث إليهم بالجنود يكفوك .
فقام إليه النعمان بن زرعة بن هرمي من ولد السفاح التغلبي فقال : أيها الملك : إن
هذا الحي من بكر بن وائل إذا قاطوا بذئ قار تهافتوا تهافت الجراد في النار .

فعقد للنعمان بن زرعة على تغلب وفر ، وعقد لخالد بن يزيد البهراني على قضاة
وإياد ، وعقد لإياس بن قبيصة على جميع العرب ومعه كتيبته الشهباء والدوسر : فكانت
العرب ثلاثة آلاف» (١) .

وقال : «وأفلت إياس بن قبيصة على فرس له كانت عند رجل من بني تيم الله
يقال له أبو ثور ، فلما أراد إياس أن يغزوهم أرسل إليهم أبو ثور بها ، فنهاه أصحابه أن
يفعل، فقال : والله ما في فرس إياس ما يعز رجلاً ولا يذله ، وما كنت لأقطع رحمه
فيها، فقال إياس :

غذاها أبو ثور فلما رأيتهما دخيص دواء لا أضيع غذاها

فأعدتها كفاً ليوم كربهة إذا أقبلت بكر تجر رشاها

قال : واتبعتهم بكر بن وائل يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم حتى أصبحوا من الغد
وقد شارفوا السواد ودخلوه ، فذكر أن مئة من بكر بن وائل ، وسبعين من عجل ، وثلاثين
من أفناء بكر بن وائل على الغنائم فقسموها بينهم ، وقسموا تلك اللطائم بين نسائهم ؛
فذلك قول الديان بن جندل :

(١) الأغاني ٢٢٥/٢٣ - ٢٢٦ .. وضمير قال يعود إلى راوي القصة علي بن سليمان الأخفش بإسناده إلى ابن الكلبي : عن

خراش بن إسماعيل .. انظر : الأغاني ٢٢٠/٢٣ .

إن كنت ساقية يوماً على كرم فاسقي دوارس من ذهل بن شيبانا
واسقي فوارس حاموا عن ديارهم واعطي مفارقهم مسكاً وريحاناً

قال : فكان أول من انصرف إلى كسرى بالهزيمة إياس بن قبيصة ، وكان لا يأتيه أحد يهزمه جيش إلا نزع كتفيه ، فلما أتاه إياس سأله عن الخبر ، فقال : هزمتنا بكر بن وائل ، فأتيناك بنسائهم ؛ فأعجب ذلك كسرى وأمر له بكسوة .. وإن إياساً استأذنه عند ذلك ؛ فقال : إن أخي مريض بعين التمر ، فأردت أن آتيه ، وإنما أراد أن يتنحى عنه ، فأذن له كسرى ، فترك فرسه الحمامة (وهي التي كانت عند أبي ثور بالحيرة) وركب نجبية، فلحق بأخيه ، ثم أتى كسرى رجل من أهل الحيرة وهو الخورنق ، فسأل : هل دخل على الملك أحد ؟ .. فقالوا : نعم : إياس .

فقال : شكلت إياساً أمه ، وظن أنه قد حدثه بالخبر ؛ فدخل عليه بهزيمة القوم وقتلهم ، فأمر به فنزعت كتفاه ^(١) .

ومن شعر إياس في هربه من كسرى قوله :

ما ولدتني حاضنٌ رعيّة لئن أنا مالأت الهوى باتباعها
ألم تر أن الأرض رحب فسيحة فهل تعجزني بقعة من بقاعها
ومبثوثة بث الدبا مسطرةً رددت على بطانها من سراعها
واقدمت والخطي يخطر بيننا لأعلم من جبانها من شجاعها ^(٢)

ومن الأخبار الأدبية لإياس ما يتعلق بفرسه . وهي البريت التي يقول فيها حارثة بن

أوس الكلبي :

ونجّي إياساً سابح ذو علالة ملّحٌ إذا يعلو الخزابي ملهب

(١) الأغاني ٢٣/٢٣٤ - ٢٣٦ .

(٢) الحماسة لأبي تمام ١٢١/١ ، وانظر : شرح الحماسة للمرزوقي ٢٠٨/١ - ٢٠٩ ، والأشياء والنظائر ١٤٧/١ ، وشعر طيئ

٣٤١/٢ ، والمنازل والديار ٣٦٢/١ ، وشعراء النصرانية ١٣٧/١ - ١٣٨ .

أبو أمه العريان أو هو خاله إلى كل عرق صالح يتنسَّب
 كأن استه إذ أخطأته رماحنا وفات البريتُ لبده يتصبَّب
 ذنابي جباري أخطأ الصقر رأسها فجادت بمكنون من السلح يثعب^(١)
 وعند الألوسي :

ونجى إياساً مني سيف مجنسب تراه إذا ما وجدت الخيل يلعب^(٢)
 أبو أمه البريت أو هو خاله إلى كل عرق صالح يتنسَّب^(٣)

ورواه بعض العلماء «أبو أمه العريان» ، فأذكره أبو الندى وقال : هو البرت^(٤)

وقال أبو بكر ابن دريد هو البرت بضم الباء وتخفيف الراء ، وأنشد الشعر على غير

ما أنشده أبو محمد :

(١) نسب الخيل لابن الكلبي ، ص ٥٥ .

(٢) قوله (سيف مجنسب) لعل صوابه (شدف مجنسب) ، والشدف ككتف الطويل العظيم السريع الوثبة من الخيل .. سکن داله ضرورة ، والمجنسب المنعطف العظام .. والتجنسب في الخيل مما يوصف صاحبه بالشدة [الألوسي] .

(٣) هذا هو نص الغندجاني في كتابه أسماء خيل العرب ، ص ٥٢ - ٥٣ ، وقال محققه في التحشية : «أورده ابن الكلبي ، ص ٩٦ - ٩٧ لإياس بن قبيصة بصيغة التصغير البرت وأورد الشعر في أربعة أبيات لحارثة بن أوس باختلاف طفيف بقوله :

ونجى إياساً سابع ذو علالة ملح إذا يعلو الخرابي مهلب
 أبو أمه العريان أو هو خاله إلى كل عرق صالح يتنسَّب
 كأن استه إذ أخطأته رماحنا وفات البريتُ لبده يتصبَّب
 ذنابي جباري أخطأ الصقر رأسها فجادت بمكنون من السلح يثعب

وواضح أن الموجّه للضبط عند كل من ابن الكلبي والغندجاني هو رواية الشعر : فعجز البيت الثالث لا يستقيم إلا بتخفيف (البرت) وهو ما لم يروه الغندجاني ، وصدر الثاني لا يستقيم إلا بتشديد (البرت) وهو ما لم يأخذ به ابن الكلبي ؛ ولهذا فقد مال الفيروز آبادي في (برت ١/١٤٣) إلى الأخذ بالأقوال جميعاً (البرت) - والبرت - والبرت) وهو بلفظ التصغير لأبي قبيصة في حلية الفرسان ، ص ١٦٠ ، وورد اسمه بلا ضبط في الكنز المدفون ، ص ٨٩ ، ومعنى البرت الحاذق .

قال أبو عبد الرحمن : وضبطها محقق أسماء خيل العرب للغندجاني ، ص ٥٣ بالجمع «سيوف» ، وقال : «في الأصل (سيف) .. ولا يستقيم به الوزن .

(٤) قال محقق كتاب الغندجاني ، ص ٥٣ : «جاء في حاشية المخطوط : قال أبو بكر ابن دريد : هو البرت بضم الباء وتخفيف الراء .. وأنشد الشعر على غير ما أنشد أبو محمد [يعني الغندجاني] .. وذكر الأبيات الأربعة التي أوردها ابن الكلبي» .

ونجى إياساً سابع ذو علالة

ملح إذا يعلو الخزابى يغلب^(١)

أبو أمه العريان أو هو خاله

إلى كل عرق صالح يتنسب

ذنايى حبارى أخطأ الصقر رأسه

فجادت بمكنون من السلح يشعب^(٢)

وذكر ابن جزى أن فرس إياس التي نجا عليها يوم ذي قار اسمها الحمامة^(٣) .

ولقد اشتهر فرس ضبيب الذي نجا عليه كسرى أبرويز لما انهزم بهرام شوبين ، وهي

فرس حسان بن حنظلة الطائي ، وفي ذلك يقول :

تلاقت كسرى أن يُضام ولم أكن لأتركه في الخيل يعثر راجلاً

بذلت له صدر الضبيب وقد بدت مسومة من خيل ترك وكابلاً^(٤)

قال ابن جزى : « والضبيب اسم فرس منجب في العراب كان لحسان بن حنظلة بن

أبي رهم الطائي فارس الضبيب فيما ذكره ابن الكلبي .. وقال غيره : كان فارس الضبيب

قد حضر مع بعض ملوك الفرس حرباً هزم فيها ذلك الملك ، وقصر به فرسه في الجري ؛

فحملة حسان على الضبيب ، فعرف له الملك ذلك ، وأقطعه مواضع بالسواد ، ثم صار

فحلاً تنسب إليه عتاق الخيل .. وتمام القصة أن أبرويز انكشف عن خيل بهرام بن المرزيان

(١) يقال لأول جري الفرس بدهاة ، والذي يكون بعده علالة كما في التاج .. والخزابى : أماكن متقادة غلاظ مستدقة ،

والسابع الفرس لسبحه بيديه في سيره [الألوسي] .

(٢) الذنايى ذنب الطائر المعروف ، وقيل : منبت الذنب .. والحبارى طائر معروف على شكل الإوزة برأسه ويطنه غيرة ، ولون

ظهره وجناحيه كلون السمانى غالباً .. والسلح الغائط .

(٣) كتاب الخيل (مطلع اليمن والإقبال) ، ص ١٣٢ ، وفي هذا الموضع زيادة تفصيل عن هرب إياس من كسرى بعد هزيمة يوم

ذي قار .

(٤) نسب الخيل لابن الكلبي ، ص ٥٥ ، وانظر : الاشتقاق لابن دريد ، ص ١٩٠ .. وعن حنظلة راجع المحبر ، ص ٢٣٨ وقد

نسب شعر حنظلة لإياس ، والأنساب للعوتبي ، ص ٢٧١ ، وشعرا النصرانية ٩١/١ - ٩٢ .

في بعض أيام الفرس (وكان أبرويز المسمى شبيداز) ، فبلع به الفرس ، فطلب من النعمان أن يحمله على فرسه اليموم فأبى عليه ، ولما أشرف أبرويز على الهلاك وخانته الرجال نظر إليه حسان بن حنظلة فأعطاه فرسه المعروف بالضبيب ، وقال : أيها الملك انج على فرسي فإن حياتك خير للناس من حياتي ، وأعطاه أبرويز فرسه شبيداز ، فنجأ عليه في جملة الناس .. وكان أبرويز في بعض الأيام على فرسه شبيداز فانقطع عنانه فدعا بصاحب سروجه ولجمه فأراد ضرب عنقه لما لم يتعاهد العنان ، فقال : أيها الملك ما بقي شيء يجتذبه ملك الإنس وملك الخيل ؟ ! .. فاطلقه وأجازه .

والفرس تذكر في أشعارها هذا الفرس المعروف بشبيداز وهو مصورٌ أفي جبل قرماسين من أعمال الدينور ، وهو وأبرويز وغيره من الصور المعنى بتصويرها عندهم ، وهذا الموضوع أحد عجائب العالم»^(١).

وعن أسرة إياس قال الدكتور جواد علي : «وله خال اسمه حنظلة بن أبي عفراء بن النعمان ، ويقال : إنه كان نصرانياً .. وقد ذكر له أخ اسمه قيس بن قبيصة كان نازلاً بعين التمر .. وذكر أن والده كان من شعراء جرم .. وجرم رهط من طيئ»^(٢).

قال أبو عبد الرحمن : بعيد أن يكون حنظلة خالاً لإياس ؛ لأنه عمه .. وإنما يُتصور أن يكون حنظلة عمّاً وخالاً لإياس في آن واحد إذا افترضنا أن حنظلة أخ لقبیصة والد إياس من الأب فقط ، وأن حنظلة أخ لأم إياس من أمه فقط ؛ فحيث لا تكون أخت حنظلة أختاً لأخيه قبيصة .. والقوم على بقايا من شرائع الأنبياء في تحريم ذوات المحارم إلا ما يتعلق بزواج المقت .

(١) كتاب الخيل (مطلع اليمن والإقبال) ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) المفضل ٢٩١/٣ .. وعن قبيصة راجع شعراء النصرانية ٩٣/١ - ٩٧ .. وجرم هو ثعلبة بن عمرو بن الغوث بن طيئ ، وهناك جرم بن حرمز من سبئ بن معاوية بن ثعل بن عمرو بن الغوث .. انظر : البيان والإعراب ، ص ٧ ، وقارن بجمهرة أنساب العرب ، ص ٤٠٢ .

وقال الدكتور جواد : « ويظهر من روايات الأخباريين أن رؤساء طيئي كانوا يحكمونها ، وكانوا يلقبون بملك ».

وأما بنو الجراح فهم أسلاف بني فضل أمراء العرب ، وهم الأمراء في فلسطين ، وهم أصحاب الرئاسة في طيئي في أيام الفاطميين ^(١) .. قال ابن خلدون : « وكان مفرج ابن الجراح أمير بني طيئي وسائر العرب بأرض فلسطين » ^(٢) .. وقال في موضع آخر : « بنو الجراح أمراء الشام من طيئي » ^(٣) .. وقال في موضع ثالث : « وكانت الرئاسة قبلهم (أي قبل أحفادهم آل فضل) لعهد الفاطميين لبني جراح من طيئي ، وكان كبيرهم مفرج بن دغفل ابن جراح وكان من إقطاعه الرملة » ^(٤) .

قال أبو عبد الرحمن : إن بني الجراح آباء آل فضل أهل إمارة وسيادة بلا ريب ، ولكن أحفادهم آل فضل خير منهم وأعظم نفعاً للمسلمين .. أما بنو الجراح فتاريخهم قُلبُ بين القرامطة والفاطميين والروم ، وكله غدر ورشوة كما يشرح ذلك أحداثهم التاريخية ..

قال المحامي فرحان : « كان الخلفاء الفاطميون يدارون آل الجراح بالأموال والإقطاع ، وآل الجراح في كل مرة يسترضون الخلفاء الفاطميين في القاهرة بمختلف الأساليب من هدايا وشفاعات ، ووعود بعدم الخروج عن الطاعة ؛ ولهذا فقد عادوا ثانية إلى مركز إمارتهم في الرملة » ^(٥) .

وقال مصطفى مراد الدباغ - وهو في سياق التعداد لأشهر الطائيين الذين نزلوا

(١) تاريخ ابن خلدون ١٣١/٤ و ٤٩٩/٥ و ١٠/٦ ، وصح الأعشى ٣٢٥/١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦٧/٤ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ١١٧/٤ .. وفي ٢٦/٦ : « أمراء طيئي بالشام ».

(٤) تاريخ ابن خلدون ٤٩٩/٥ و ١٠/٦ ، وصح الأعشى ٢٠٣/٤ .

(٥) آل ربيعة الطائيون ، ص ٣٠ .

بفلسطين - : «وبنو الجراح الذين أسسوا لهم إمارة في البلقاء»^(١) والرملة التي استمرت عاصمة لهم من نحو ٣٦٠ - ٤٢٠ هـ : ٩٧١ - ١٠٢٨ م ، وأخيراً انتهى حكمهم وأفل نجمهم»^(٢) .

وجعل بين إمارتهم وإمارة أحفادهم بني فضل فاصلاً زمنياً ينيف على ثلاثين عاماً؛ فقال : «وفي عهد نور الدين بن زنكي (٥١١ - ٥٦٩ : ١١١٨ - ١١٤٧ م) نبغ من أحفاد آل الجراح ربعة الذي كَوَّن له إمارة مرموقة عند نور الدين ووالده ، وبعد وفاته تمكن ولده فضل أن يصبح رأس قومه على البادية بين الشام ونجد والعراق .. وكان ذلك في عهد المماليك»^(٣) .

قال أبو عبد الرحمن : أوضح سياق الأحداث من تاريخهم أن إمارة آل فضل ملتحة بإمارة آبائهم بني الجراح .

وقال : «هو ربعة بن حازم بن علي بن مفرج بن دغفل بن جراح .. وكان لبني الجراح بعض الأهمية في القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين) ، ولكنهم لم يفلحوا بتأسيس دولة مستقرة لهم .. ويظهر أن هيمنتهم وسيطرتهم على البلاد كانت بسبب نفاقهم - وقد أفلح البيزنطيون باستخدامهم - ، ونهبهم القرى والمدن وقوافل الحج وهي في طريقها إلى الحج»^(٤) .

وقال المحامي فرحان : «وأولية نشأة هذه الإمارة البدوية كان زمن استيلاء القرامطة على بلاد الشام ؛ فقد كانت^(٥) معظم القبائل العربية المتواجدة في بادية الشام وأطرافها

(١) ذكر البلقاء ولم يذكر صلة بني الجراح بها كل من ياقوت في معجم البلدان ٤٨٩/١ ، والحميري في الروض المعطار ص ٩٦ - ٩٧ ، والقلقشندي في صبح الأعشى ١٠٦/٤ .

(٢) القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين ، ص ٧٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٧ [حاشية] .

(٥) قال أبو عبد الرحمن : الصواب كان .

تساهم^(١) مساهمة فعالة في حروب القرامطة ، وكان آل الجراح ومن معهم من طيئ يشكلون جزءاً مهماً من جيش القرامطة الذي كان عليه اعتمادهم .. وهذه المشاركة من جانب طيئ هي التي أدت إلى قيام الإمارة الطائفة الأولى في بلاد الشام ؛ فعندما استولى القرامطة سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م على الرملة^(٢) عينوا فيها قائداً منهم ومعه دغفل بن الجراح الطائي وجماعة من الأخشيديّة^(٣) والكافورية^(٤) .. ومنذ ذلك التاريخ ارتبطت أحداث الأقسام الجنوبية من بلاد الشام (ولدة تزيد على قرن من الزمان) بآل الجراح أمراء طيئ في الشام .. إلا أن الفاطميين الذين كانوا يبعون السيطرة على بلاد الشام عرفوا كيف يجتذبون ولاء أمراء طيئ في الأوقات الحرجة (وذلك بالسخاء وبالمال والهبات والإقطاعات لأمرائهم) ، ويبعدونهم عن أصحابهم القرامطة ؛ ليتخلوا عنهم أثناء المعركة مقابل دفع مئة ألف دينار لهم ؛ مما أدى إلى هزيمة القرامطة .

ومثل ذلك ما عملوه مع أفتكين^(٥) أثناء حربه مع الفاطميين سنة ٣٦٥هـ ؛ إذ قبضوا عليه ، وجاءوا به إلى ابن الجراح الطائي ، فشد عمامته في عنقه ، وساقه إلى العزيز؛ فشهر به في العسكر ، وسنيت الجائزة لابن الجراح وكانت مئة ألف دينار ثم استعان الفاطميون بآل الجراح مرة أخرى لإخراج أحياء من عقيّل من الشام ،

(١) قال أبو عبد الرحمن : الأنصح حسب السياق : يساهم ؛ لأن الخبر عن المضاف «معظم» وليس عن المضاف إليه ، وكل من أسهم وساهم صحيحان ؛ لأن الإسهام وضع السهم بمعنى النصيب ، والمساهمة مشاركة .

(٢) ذكر الرملة بفلسطين ولم يذكر صلة بني الجراح بها ياقوت في معجم البلدان ٦٩/٣ - ٧٠ ، والحميري في الروض المعطار ص ٢٦٨ ، والمقدسي في أحسن التقاسيم ، ص ١٦٨ - ١٧١ ، وناصر خسرو في سفرنامه ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٣) الإخشيدية دولة حكمت مصر فيما بين ٣٢٣ - ٣٥٨ ، ومزسها محمد بن طغج الأخشيد ، وعلى أنقاضها قامت دولة الفاطميين .. انظر عنهم : القاموس الإسلامي ٤٦/١ - ٤٧ .

(٤) الكافورية نسبة إلى أبي المسك كافور الحبشي مولى الأخشيديين ، وكانت فترة حكمه محسوبة في فترة حكمهم .. والمراد بالأخشيدية والكافورية بقايا أتباعهم .

(٥) أفتكين قائد تركي هرب من بغداد سنة ٣٦٣هـ/٩٧١م ، وقدم إلى الشام ، ثم أصبح والياً على دمشق بموافقة أهلها ، وكان يميل إلى القرامطة (فرحان) .. قال أبو عبد الرحمن : انظر عنه : النجوم الزاهرة ٤/٤٣ و ١٠٨ .

وذلك أدى إلى اصطدامهم مع أبي تغلب ابن حمدان الذي كان يطمع في الاستيلاء على دمشق ؛ فقد لجأ ابن حمدان إلى بني عقيل الذين حاربوا آل الجراح ، وفي المعركة التي كانت بين الجانبين انهزمت عقيل أمام آل الجراح ، وقتل أبو تغلب» (١) .

وقال فرحان : « لم تعتنق طيئ مذهب القرامطة ، ولكنها انحازت لهم ؛ لكون القرامطة كانت لهم قوة لا يستهان بها يومئذ ، فقد سيطرت على مناطق واسعة من بلاد مصر والشام والعراق ، وأخذت تفرض الإتاوات على العشائر غير الموالية لها ؛ فقد ذكر الدواداري في الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية : أن القرامطة قد استقر أمرهم أن يأخذوا الخفائر من سائر الأقاليم ومن خليفة بغداد » (٢) .

قال أبو عبد الرحمن : لقد أصبح آل الجراح مخلين للدولة الفاطمية ، وكان الفاطميون يستمدون ودهم بالأموال والإقطاع .. ولعلك تطالع في المصادر خبر وفادة ابن الجراح سنة ٣٦٨هـ على العزيز بالله ؛ فترى مدى مبالغة الفاطميين في الإنعام عليهم . وأما حملات الدولة الفاطمية على بني الجراح ، وسعيهم في تقويض إمارتهم ، وقيام بني الجراح بتملق الفاطميين بالهدايا والشفاعات والتعهدات بعدم الخروج عن الطاعة ؛ فقد فصلت المصادر أحداثها ، ولعل أهم أسباب تلك الحملات خوف الفاطميين على وجودهم في الشام إذا بقي بنو الجراح على قوة إمارتهم واستقلالها .

وبعد إيقاع أنوشكين الدبزي بطيئ في معركة الأقحوانة سنة ٤٢٠هـ هرب زعيم بني الجراح حسان إلى البادية ، ومنها إلى الروم ، ولم يعودوا إلى بلدهم إلا في سنة ٤٣٣هـ . ولقد انقسم بنو الجراح بعد وفاة حسان ، وإنما اتحدوا على يد ربيعة جد آل فضل .. قال المحامي فرحان عن دور ربيعة وانفراط أمر بني الجراح : في هذه الحقبة من الأحداث كانت إمارة طيئ برئاسة آل الجراح قد انتابها الضعف بعد وفاة أميرها حسان بن المفرج ،

(١) آل ربيعة الطائيون ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) آل ربيعة الطائيون ، ص ٢٨ [حاشية] : عن الإمارة الطائفة للدكتور مصطفى الحباري .

ويظهر أن علان بن حسان لم يكن كأبيه ؛ إذ لم يستطع مسك زمام قيادة القبيلة ، فنافسه عليها أعمامه وأبناءؤهم .. وأخيراً آل الأمر إلى الأميرين حازم بن علي ، وحמיד بن محمود ابن المفرج ، ثم آل الأمر من بعدهم إلى ابني حازم وهما بدر وربيعة .. ويبدو أن ربيعة كان قد سيطر تماماً على إمارة طيئ وأعاد هيبتها ، ومكانتها ؛ فأصبحت قوتها أكبر من قوة القبائل الأخرى في بلاد الشام ؛ مثل كلاب في الشمال ، وكلب في الوسط»^(١) .

وقد بدأ ذكر آل الجراح المدون في كتب التاريخ بمفرج بن دغفل بن جراح في عهد الحسن ابن أحمد الجنابي القرمطي^(٢) (٢٧٨ - ٣٦٦هـ) الذي استولى على الشام سنة ٣٥٧هـ ، وقد هزم جيش المعز الفاطمي الذي أرسله من مصر بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي^(٣) .

وقد استولى جعفر على رملة فلسطين سنة ٣٥٨هـ ، ثم استولى على دمشق سنة ٣٥٩هـ .. إلا أن الحسن بن أحمد القرمطي قتله بها سنة ٣٦٠هـ ، فأعاد دمشق والرملة إلى سلطته ، ورحل منها إلى مصر لمقاتلة الفاطميين ، وخلف بالرملة أبا محمد عبد الله بن عبيد الله الحسني^(٤) ومعه ابن الجراح الطائي .. سماه الصابي دغفل بن الجراح^(٥) . ويذكر المقرئ أن الجنابي نزل على مصر أول ربيع الأول سنة ٣٦١هـ فقاتله ، جهر على الخندق وهزمه ، فرحل إلى الأحساء^(٦) .

وقد فصل المقرئ هذه الأحداث في كتابه الآخر المقفى ؛ فقال : «وغدوا يوم الأحد للقتال على باب الخندق ؛ فكانت وقائع شديدة قتل من الفريقين عدد كبير ، وانهزم الحسن ، ونهب سواده ببركة الحاج ، وأخذت صناديقه وكتبه ، ومضى في الليل على طريق

(١) آل ربيعة الطائيون ، ص ٤٠ .

(٢) ترجمته في المقفى الكبير ٢٨٧/٣ - ٣٠٣ .

(٣) ترجمته في المقفى الكبير ٥٠/٣ - ٥٨ .

(٤) ترجمته في المقفى الكبير ٥٨٨/٤ - ٥٨٩ .

(٥) انظر : ذيل تاريخ دمشق لابن القلاسي ، ص ٢ نقلاً عن مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي : عن تاريخ هلال الصابي .. ونجد

تفصيل هذه الأحداث في اتعاظ الحنفا للمقرئ ١٨٦/١ - ١٨٨ .

(٦) اتعاظ الحنفا ١٨٨/١ .

القلزم ، ونهب بنو عقيل وبنو طيئ كثيراً من سواده وهو مشغول بالقتال ؛ فسار إلى الأحساء ، ثم عاد من الأحساء ونزل بالرملة في سابع رمضان ، وطرح مراكب في البحر وملأها بالمقاتلة ، وأكثر من جمع العربان معه ليسير إلى القاهرة ؛ فقدم المعز لدين الله أبو تميم معد من بلاد الغرب ، ونزل بالقاهرة في رمضان سنة اثنتين وستين ، فكتب إلى الحسن ابن أحمد كتاباً عظيماً^(١) .. فكتب جوابه بعد البسملة : «وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله ، ونحن سائرون على إثره والسلام» .

فلما كان شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين كثر انتشار القرامطة في أعمال الشام ، وكثر الإرجاف بهم في القاهرة ومصر ، وبلغت مقدمتهم أرياف مصر وأرياف المحلة لعشر بقين من جمادى الآخرة ، ووصلت منهم سرية إلى أطراف الجوف أول من رجب .. ويعث الحسن بن أحمد عبد الله بن عبيد الله أخا الشريف مسلم إلى الصعيد ؛ فنزل نواحي أسبوط وأخميم ، وجبى الأموال ، وحارب أصحاب المعز .. ونزل الحسن بلبيس ، فتأهب المعز لقتاله ، وندب ابنه ولي العهد الأمير عبد الله بالعساكر .. وقد انتشر القرامطة في نواحي أسفل الأرض يجبون الأموال .

وخرج ريان الصقلبي في أربعة آلاف إلى المحلة فقتل وأسر كثيراً من القرامطة ، فاشتعلت أرض مصر أعلاها وأسفلها بنار الحرب من القرامطة .

ونزل الأمير عبد الله بركة الحاج في سلخ رجب ، وقد نزل النعمان بن أحمد أخو الحسن بن أحمد تجاهه ، ونزل الحسن بسطح البركة ، ووقع القتال بين الفريقين واشتد ؛ فولى حسان بن علي بن الجراح الطائي منهزماً عن الحسن بمن معه وكانوا جمعاً كبيراً ، فلم يثبت الحسن ومضى على وجهه ، ونُهب سواده ، وأخذت قبته ، وأسر من عساكره خلق كثير ؛ فنزل أذرعات ، وتوجه منها إلى الأحساء وقد تمزقت عساكره .. فبلغ ذلك عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة علي بن بويه ؛ فطمع أن يظفر ببقية القرامطة في الأحساء ،

(١) أورد نص هذا الخطاب القرظي في اتعاظ الحنفا ١/ ١٨٩ - ٢٠١ .

وبها يومئذ أبو يعقوب عم الحسن بن أحمد ؛ فبعث إليه عسكرياً كثيفاً ، ففر عن الأحساء ، فاحتوى العسكر على الأحساء وما فيها ، ووافى الحسن بن أحمد فيمن بقي معه ، فانضم إليه عمه وبقية أصحابه ، وحارب المعسكر .. وكانت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها رجال العسكر ، وأخذت أموالهم فقويت نفس الحسن بن أحمد ، وعادت دولته .. وكتب يستدعي العرب ، فأجابوه ، ثم بعث رسوله إلى المعز يطلب موادعته ويوصيه بكتابته أبي المنجي ، وقد قبض عليه وحمل إلى القاهرة ليسجن بها ، فأفرج عنه في خامس المحرم سنة أربع وستين» (١) .

وأورد المقرئ في القصة بسياق آخر فقال : «وأما أخبار القرامطة ففي كتب المؤرخين من المشاركة المتعصين على الدولة الفاطمية» (٢) : أن سبب انهزام الحسن بن أحمد القرمطي من عساكر المعز : أن العرب لما أنكت بمسير سراياها بأرض مصر رأى المعز أن يفل عساكر القرامطة وجموعهم بمخادعة حسان (٣) بن الجراح الطائي أمير العرب ببلاد الشام (وكان قدم مع القرمطي في جمع عظيم قوي به عسكر القرمطي) ؛ فبعث المعز إلى ابن الجراح ، وبذل له مئة ألف دينار على أن يفل عسكر القرمطي ، فأجاب إلى ذلك .. وأن المعز استكثر المال ، فعمل دنانير من نحاس وطلاها بالذهب ، وجعلها في أكياس ، ووضع على كل كيس منها دنانير يسيرة من الذهب ليغطي ما تحتها ، وشدت الأكياس ، وحملت إلى ثقة من ثقات ابن الجراح بعدما كانوا استوثقوا منه وعاهدوه أنه لا يغدر بهم .. فلما وصل إليه المال تقدم إلى كبار أصحابه بأن يتبعوه إذا تواقف العسكران وقامت الحرب ، فلما

(١) المفقى الكبير للمقرئ ٢٩٧/٣ - ٢٩٨ ، وتاريخ أخبار القرامطة ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) قال أبو عبد الرحمن : الحمية لدين الله ضد الكفر البواح الذي رزنت به الأمة الإسلامية من قبل هذه الدولة القرمطية أخطر وأجل من دعاوى عصبية مشرقية أو مغربية .

(٣) ورد في الهامش بالأصل من كتاب اتعاظ الحنفا تعريف هذا الرجل .. نصه : «حسان بن علي مفرج بن دغفل بن حرام بن شبيب بن مسعود بن سعيد بن ... بن ... بن علي بن حوط بن عمرو بن خالد بن معدان بن ... أفلت بن سلسلة بن عمرو ابن سلسلة بن غانم بن ثور بن معن بن ... بن عثين بن سلامان بن ... بن عمرو بن الغوث بن طي» .

اشتد القتال ولَّى ابن الجراح منهزماً ، واتبعه أصحابه (وكان في جمع كبير) ؛ فلما رآه القرمطي وقد انهزم تحير ، فكان جهده أن قاتل بمن معه حتى تخلص (وكانوا من كل جانب) ؛ فخشي على نفسه وانهزم ، واتبعوه ودخلوا عسكره ، فظفروا منه بنحو من ألف وخمسمائة رجل ، فأخذوا أسرى ، وانهبوا العسكر ^(١) .

قال أبو عبد الرحمن : فهذا أحد مواقف حسان ابن الجراح ؛ إذ خذل صديقه القرمطي لصالح الفاطمي مقابل رشوة من المال .. ويلي ذلك موقف له لثيم آخر ، وذلك موقفه من أفتكين .

وعن سنة ٣٦٤هـ قال المقرئزي : «وورد الخبر بوقعة كانت لأبي محمود مع ابن الجراح الطائي بناحية طبرية» ^(٢) .

قال أبو عبد الرحمن : أبو محمود إبراهيم بن جعفر بن فلاح الكتامي المتوفى سنة ٣٧٠هـ .. سيره المعز لخمس بقين من شعبان سنة ٣٦٣هـ إلى الشام بعشرين ألفاً ، فدخل الرملة ، فاستأمن إليه جماعة من عسكر القرامطة وملكها بغير قتال ^(٣) .

وقال المقرئزي عن وقعة طبرية : «فلما قدم أفتكين الشرايبي ^(٤) من بغداد إلى دمشق، وملكها من ريان ، ونزل عليه متملك الروم ^(٥) : خرج إليه ، وبلغ ذلك أبا محمود ، فجهز جيش بن الصمصامة من طبرية في ألفي رجل إلى دمشق ، فلما وصل البشنيه ^(٦)

(١) اتعاظ الحنفا ٢٠٥/١ ، وانظر : الكامل لابن الأثير ٦٣٨/٨ - ٦٣٩ ، البداية والنهاية ٢٧٦/١١ ، وذيل تاريخ دمشق لابن القلاسي ، ص ٣ ، وتاريخ أخبار القرامطة ، ص ٦٠ عن تاريخ ثابت بن سنان ، وقد أوضح الذي أشار باستمالة ابن جراح وزيره ابن غنام .

(٢) اتعاظ الحنفا ٢٢٤/١ .

(٣) الملقى الكبير ٢٨٦/١ .

(٤) عند القلاسي : أبو منصور الفتكين التركي المعزي البوهبي ، وهي نسبة إلى معز الدولة اليعلاوي [محقق الملقى] .

(٥) هو يانس بن الشمشقيق الدمشقي البيزنطي .. انظر : ماريوس كانار نخب تاريخية [اليعلاوي] .

(٦) البشنية والبشنة قرية بين دمشق وأذرعاء .. ياقوت [اليعلاوي] .

وجد شبل بن معروف العقيلي نازلاً عليها في عريه ، فاقتتلا ساعة كانت الكرة على جيش ؛ فأخذ أسيراً وقتل أصحابه .. وبعث شبل بجيش إلى أفتكين ، فسلمه إلى متملك الروم وهو مقيم على عين الجر^(١) ينتظر المال الذي طلبه من أهل دمشق .. فلما أخذ المال ورحل من دمشق إلى بيروت : بعث أفتكين شبل بن معروف إلى طبرية ، ففر أبو محمود إلى الرملة بمن معه من المغاربة فقصدهم العرب ، وواقعوهم نحو بيت المقدس ، فكانت العرب على المغاربة ، وقتلوا منهم كثيراً ، وأسروا جماعة وبعثوهم إلى دمشق ، فطوفوهم على الجمال ، وضربوا أعناقهم»^(٢) .

قال أبو عبد الرحمن : والأفتكين قائد تركي هرب من بغداد سنة ٣٦٣هـ إلى دمشق، واستولى عليها بموافقة أهلها .. قال محمد كرد علي : «هلك المعز الفاطمي ، وتولى ابنه العزيز سنة ٣٦٥هـ ، فقصده أفتكين المستولي على دمشق ، فحاصرها وبها ابن الشيخ ومعه رؤوس المغاربة ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي ، فقاتلهم وكانوا في كثرة ؛ فطمعوا فيه ، وخرجوا إليه ؛ فاستجروهم حتى أبعدوا ، ثم عاد عليهم ، فقتل منهم نحو أربعة آلاف، وطمع في أخذ عكا ، فتوجه إليها ، وقصد طبرية ففعل فيها من القتل والنهب مثل صيدا وعاد إلى دمشق .. ثم أرسل العزيز القائد جوهر في العساكر إلى الشام ، فلما سمع أفتكين بمسيره جمع أهل دمشق وعاهدهم فبايعوه على الطاعة وبايعهم على الذب عنهم ، فوصل جوهر إلى دمشق سنة ٣٦٥هـ ، ورأى من قتال أفتكين ومن معه ما استعظمه ، ودامت الحرب شهرين قتل فيها عدد كبير من الطائفتين .. فلما رأى أهل دمشق طول مقام المغاربة عليهم أشاروا على أفتكين بمكاتبة الحسن بن أحمد القرمطي ملك القرامطة واستنجاده ، فجاءهم القرمطي ، واجتمع إليه من رجال الشام والعرب نحو خمسين ألفاً ؛ فرحل جوهر من دمشق خوفاً من أن يبقى بين عدوين ، وتبعه أفتكين

(١) عين الجر في البقاع بين بعلبك ودمشق .. ياقوت (البيلاوي) .

(٢) المقي الكبير ١/١٣٥ .

والقرمطي ، والتقوا بيافا ، وحصروه في عسقلان ، فعابن الهلاك هو وأصحابه من الجوع نحو سبعة أشهر ؛ فبذل لأفتكين مالاً ليمنّ عليه ويطلقه ، فرحل أفتكين عنه وسار جوهراً إلى مصر ، وأعلم العزيز بالحال ؛ فسار العزيز بنفسه إلى الشام في سبعين ألف مقاتل ، ووصل الرملة ، فقاتله أفتكين والقرامطة بظاهرها قتالاً شديداً ، فنصر العزيز وقتل وأسر كثيراً في المحرم ٣٦٧هـ ، وقد قتل من المغاربة جيش الفاطمي نحو من عشرين ألفاً ، وجعل العزيز لمن يحضر أفتكين مئة ألف دينار ، وطلب أفتكين في هزيمته بيت صاحبه مفرج بن دغفل الطائي ، فأسره في بيته ، وأعلم العزيز به ، فأعطاه الجعل ، وأحضر أفتكين سنة ٣٦٨هـ ، فأطلقه العزيز وأصحابه ، وبقي عنده معظماً حتى مات بها .. وبعث العزيز إلى الأعصم زعيم القرامطة وهو منهزم ، فأدركه بطبرية وأعطاه عشرين ألف دينار فسار إلى الأحساء»^(١) .

قال أبو عبد الرحمن : فهذا نص على أن المفرج غدر بأفتكين وهو صديقه لاجئ إلى بيته .. وفي سياق ابن الأثير أن الخبر ورد إلى أفتكين والقرمطي بخروج العزيز ، فعادا إلى الرملة ، وجمعا العرب وغيرها ، وحشدا ، ووصل العزيز ، فنزل بظاهر الرملة ، ونزلا بالقرب منه ، ثم اصطفوا للحرب في المحرم سنة سبع وستين وثلاث مئة ، فرأى العزيز من شجاعة أفتكين ما أعجبه ، فأرسل إليه تلك الحال يدعوه إلى طاعته ، ويبذل له الرغائب والولايات ، وأن يجعله مقدم عسكره ، والمرجوع إليه في دولته ، ويطلب أن يحضر عنده ،

(١) خطط الشام ٢٠٥/١ .. قال أبو الفدا في المختصر ١١٥/٢ : «فخرج العزيز بنفسه ، وسار إلى الشام ، فوصل إلى ظاهر الرملة ، وسار إليه أفتكين والقرامطة ، والتقوا ، وجرى بينهم قتال شديد ، وانهمز أفتكين والقرامطة ، وكثر فيهم القتل والأسر ، وجعل العزيز لمن يحضر أفتكين مئة ألف دينار ، وولى أفتكين هارباً حتى نزل بيت مفرج بن دغفل الطائي ، فأمسكه مفرج بن دغفل المذكور (وكان صاحب أفتكين) ، وحضر مفرج إلى العزيز وأعلمه بأسر أفتكين ، وطلب منه المال ، فأعطاه ما ضمنه ، وأرسل معه من أحضر أفتكين ممسكاً بين يدي العزيز ، فأطلقه ، ونصب له خيمة ، وأطلق من كان في الأسر من أصحابه ، وحمل العزيز إليه أموالاً وخلعاً ، ثم عاد العزيز إلى مصر وأفتكين صحبته على أعظم ما يكون من المنزلة ، وبقي كذلك حتى مات أفتكين بمصر» .. وتابعه ابن الوردي في التنمة ٤٤٨/١ - ٤٤٩ .

ويسمع قوله ؛ فترجل وقبل الأرض بين الصفين ، وقال للرسول : قل لأمير المؤمنين : لو قدّم هذا القول لسارعت وأطعت ، وأما الآن فلا يمكن إلا ما ترى .. و حمل على المسيرة فهزمها ، وقتل كثيراً منها ؛ فلما رأى العزيز ذلك حمل من القلب ، وأمر الميمنة ، فحملت ، فانهمز القرمطي وأفتكين ومن معهما ، ووضع المغاربة السيف ، فأكثروا القتل ، وقتلوا نحو عشرين ألفاً .

ونزل العزيز في خيامه ، وجاءه الناس بالأسرى ، فكل من أتاه بأسير خلع عليه ، وبذلك لمن أتاه بأفتكين أسيراً مئة ألف دينار ، وكان أفتكين قد مضى منهزماً ، فكظه العطش ، فلقيه المفرج بن دغفل الطائي (وكان بينهما أنس قديم) ؛ فطلب منه أفتكين ماء فسقاه ، وأخذه معه إلى بيته فأنزله وأكرمه ، وسار إلى العزيز بالله فأعلمه بأمر أفتكين ، وطلب منه المال ؛ فأعطاه ما ضمنه ، وسير معه من تسلم أفتكين منه ؛ فلما وصل أفتكين إلى العزيز لم يشك أنه يقتله لوقته ؛ فرأى من إكرام العزيز له والإحسان إليه ما أعجزه ؛ أمر له بالخيام فنصبت ، وأعاد إليه من التحف والأموال ما لم ير مثله ، وأخذه معه إلى مصر ، وجعله من أخص خدمه وحجابه .

وأما الحسن القرمطي فإنه وصل منهزماً إلى طبرية ، فأدركه رسول العزيز يدعوه إلى العود إليه ليحسن إليه ، ويفعل معه أكثر مما فعل مع أفتكين ، فلم يرجع ، فأرسل العزيز إليه عشرين ألف دينار ، وجعلها له كل سنة ، فكان يرسلها إليه ، وعاد إلى الأحساء .

ولما عاد العزيز إلى مصر أنزل أفتكين عند قصره ، وزاد أمره ، وتحكم ، فتكبر على وزيره يعقوب بن كلس ، وترك الركوب إليه ؛ فصار بينهما عداوة متأكدة ، فوضع عليه من سقاه سما فمات ؛ فحزن عليه العزيز ، واتهم الوزير فحبسه نيفاً وأربعين يوماً ، وأخذ منه خمس مئة ألف دينار ، ثم وقفت أمور دولة العزيز باعتزال الوزير ؛ فخلع عليه . وأعادته إلى وزارته^(١) .

(١) الكامل ٦٥٩/٨ - ٦٦١ في أحداث سنة ٣٦٤ هـ ، وانظر : ذيل تاريخ دمشق لابن القلاسي ، ص ١٨ - ٢٠ ، وانظر عن

أفتكين : انعاظ الحنفا ٢١٨/١ - ٢٢٢ .

قال أبو عبد الرحمن : هذا النص لا يتنافى مع النص السابق ، بل فيه أن المفرج لقي أفتكين وهو في طريق قصده إليه ، وفيه أنه خانه على الرغم من الأُنس القديم ، والتأمين الحديث . وقال المقرئزي : « لما سار العزيز من الرملة بأفتكين إلى مصر جعل بلد فلسطين لمفرج بن دغفل بن الجراح الطائي »^(١) .

وفصل المقرئزي هذه الأحداث ، وذكر أن حسان بن علي بن مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي كان مع أفتكين على محاربة جوهر ، وأنه لم ير من جوهر ما يحب ، وأن العزيز راسل حساناً ، وأن حساناً أنصرف عن أفتكين وقدم القاهرة على المعز ، وأن العزيز سار وعلى مقدمته حسان ، وأن أفتكين أخذ نحو القدس ، وجيء به إلى حسان ، فشد عمامته في عنقه ، وساقه إلى العزيز ، فشهر في العسكر ، وأسْنيت الجائزة لابن الجراح^(٢) . وأرخ لهذه الواقعة بسبع بقين من المحرم سنة ٣٦٨ هـ^(٣) ، وفي هذا العام قدم حسان على العزيز ، فخلع عليه ، وحمل على خمسة رؤس من الخيل ، وقاد إليه - بين يديه - خمسة أحمال مال ، وأنزله داراً^(٤) .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا النص أيضاً لا ينافي ما قبله ؛ لأنه حينئذ يكون مفرج أرسل أفتكين إلى ابنه حسان ، ويكون الأفتكين شُهرَّ به في العسكر قبل أن يصل إلى العزيز الذي أطلقه وأكرمه .

وقال المحامي فرحان : « إن الدولة الحمدانية في عهد أميرها أبي تغلب^(٥) تعرضت لغارات من الروم على بعض نواحيها حتى وصلوا إلى نصيبين وديار بكر ، وفي الوقت

(١) انعاظ الخنفا ٢٤٩/١ .

(٢) انعاظ الخنفا ٢٣٨/١ - ٢٤٣ .

(٣) انعاظ الخنفا ٢٤٤/١ .

(٤) انعاظ الخنفا ٢٤٦/١ .

(٥) سماء المقرئزي في المقيى، ص ٢٩٦ عبد الله بن حمدان ، وذلك وهم ، وعبد الله جده ، وإنما هو الغضنفر بن الحسن بن الحسن ابن عبد الله .. تولى الإمارة سنة ٣٥٦ هـ حيث أصيب والده في عقله .. انظر : الأعلام ١٢٠/٥ ، والنجوم الزاهر ١٣٦/٤ .

نفسه تقدم البويهيون المتحكمون في شؤون الخلافة العباسية في بغداد في أراضي الدولة الحمدانية أيضاً ، فاستولى أميرهم عضد الدولة بن ركن الدولة على الموصل نفسها كما استولى على ديار ربيعة وديار مضر وميافارقين ؛ مما حمل أبا تغلب أمير بني حمدان إلى الهرب إلى دمشق سنة ٣٦٧ هـ ، ثم غلب على بعض المدن ، وسار بجموعه إلى الرملة ، وكان حاكمها الفضل بن صالح من أصحاب الخليفة الفاطمي العزيز بالله ؛ فاستجار بنو عقيل المقيمون هناك بأمر بني حمدان ضد أمير طيئ دغفل بن الجراح ، فانضم دغفل إلى الفضل فقاتلا أبا تغلب قتالاً شديداً حتى لم يبق معه إلا سيمعانة من غلمانها ، فولى منهزماً ، واتبعوه فقبض عليه ، وحمل إلى ابن الجراح ، فأركبه جملاً ، وشهر به في الرملة ، ونزع جميع ما عليه حتى بقي بثوب رقيق ، وحبسه ، وطلب شيئاً يتوسد عليه ، فقال ابن الجراح : اجعلوا شوكاً يتوسده ، فحمل إليه ، وقالوا له توسد بهذا .. فأغلظ في القول ، وشم ابن الجراح ، فبلغه ذلك ؛ فغضب ، وأمر بقتله ؛ فقتل ، وأحرق ليومين بقايا من صفر سنة ٣٦٩ هـ ، وبعث الخليفة العزيز في مصر بسجل فيه ولاية ابن الجراح على الرملة ، وأصبح آل الجراح وأتباعهم من أخلص أصحاب الفاطميين ^(١) .

وعن حال ابن حمدان وقسام وتولية ابن جراح على الرملة قال ابن القلاسي : «السبب في غلبة قسام ^(٢) على ولاية دمشق : أن أفتكين المعزي كان قد استخدمه ،

(١) قال أبو عبد الرحمن : انظر : اتعاظ الخفا ٢٤٩/١ - ٢٥٢ ، والمختصر لأبي الفداء ١٢٠/٢ وسماء دغفل بن مفرج ، وتابعه ابن الوردي في التتمة ٤٥٤/١ ، وقال ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ١٧٢/٣ عن أبي تغلب : « وقتله مفرج صبراً ، وبعث برأسه إلى العزيز سنة ثمان وستين وثلاث مائة » .

(٢) قال محمد كرد علي في خطط الشام ٢٠٦/١ - ٢٠٧ : « لما فارق أفتكين دمشق إلى فلسطين : قدم على أهلها رجلاً اسمه قسام الحارثي من الأبطال المعروفين .. وقيل : من أرباب الدعارة العيارين .. كان أصله من قرية تلفيتا في سنير ، يعتاش بنقل التراب على الحمير ، وتنقلت به الأحوال حتى صار له ثروة وأتباع ، وغلب على دمشق وما إليها من الأصقاع ؛ بحيث لم يبق معه لنوابها من الفاطميين أمر ولا نهى ، ودام ذلك سنين .. وكان القائد أبو محمود بن إبراهيم المغربي قد عاد إلى البلد والياً عليه للعزيز ؛ فلم يتم له مع قسام أمر ، وامتندت أيدي أصحاب أبي محمود بالبعث والفساد وقطع الطرق ، فاضطرب الناس ، وخافوا ، وانتزع أهل القرى منها لشدة نهب المغاربة أموالهم وظلمهم لهم ، =

وقدمه ، واعتمد عليه ، وسكن في كثير من أمره إليه فصار له بذلك صيت يخشى به وبرجاله ، واتفق خلو البلد من أكابر الولاة بعد أفتكين وفراغه من شجعان الرجال ، وكان فيه المعروف بحميدان ^(١) المقفى قد وليه وأمر فيه ونهى ، وأخذ وأعطى ؛ ففسد الأمر بين قسام وبين حمدان ؛ فصار حميدان من تحت حكم قسام لقهره له بكثرة من معه واستيلائه

== ووقعت فتنة عظيمة بين عسكر أبي محمود وبين العامة ، فألقى عسكره النار من باب الفرديس فأحرقوا تلك الناحية ، وكانت فيها أجمل قصور دمشق ، وحرقت كثيراً من أحياء البلد ، وهلك فيه جماعة وما لا يعد من الأثاث والأموال ، ثم صالحوا القائد أبا محمود ، ثم انتقضوا ولم يزالوا كذلك إلى سنة ٣٦٤ هـ .. ولما خاف الفاطميون عقابية قسام الحارثي ؛ إذ استلذ طعم الانتصار غير مرة ؛ سيروا لحربه الأمير الأفضل ؛ فحاصر دمشق ، وضاق بأهلها الحال ، فخرج قسام متنكراً فأخذه الحرس ، فقال : أنا رسول .. فأحضره إلى الأفضل ، فقال له : أنا رسول قسام إليك لتحلف له وتعوضه عن دمشق بلداً يعيش به ، وقد بعثني إليك سرأ .. فحلف الأفضل ، فلما توثق منه قام وقبل يديه ، وقال : أنا قسام .. فأعجب الأفضل بما فعله ، وزاد في إكرامه ، وردده إلى البلد ، وسلمه إليه ، وقام الأفضل بكل ما ضمنه ، وعوضه موضعاً عاش به ؛ فلما بلغ ذلك العزيز أحسن صلته .. ذكر هذا القفطي ، وأورد الذهبي رواية أخرى في أمر قسام قال : إنه تقدم لقتاله سليمان بن جعفر بن فلاح إلى دمشق فنزل في ظاهرها ، ولم يتمكن دخولها ، فبعث إليه قسام بخطه : أنا مقيم على الطاعة .. وبلغ العزيز ذلك ؛ فبعث البريد إلى سليمان يردده ، فترحل سليمان من دمشق ، وولى العزيز عليها أبا محمود المغربي ولم يكن له أيضاً مع قسام أمر ولا حل ولا عقد .. قال ابن تغري بردي : ولعل الذي ذكره الذهبي كان قبل توجه عسكر أفتكين والأفضل ؛ فإن الأفضل لما سار بالجيش أخذ دمشق من قسام وعوضه بلداً آخر وهو المتواتر .. وكان من سياسة قسام الحارثي أن كان يدعو للعزيز بالله العلوي على المنابر .. وقبل أن يحاربه المصريون وصل إليه أبو تغلب ابن حمدان صاحب الموصل ، وحط رحاله في حوران ، فمنعه قسام من دخول دمشق ، فاستوحش أبو تغلب ، وجرى بين أصحابه وأصحاب أبي تغلب شيء من قتال ، فرحل أبو تغلب إلى طبرية ، وورد من عند العزيز القائد الأفضل في جيش فقاتله وجماعته حتى قتل في الرملة سنة ٣٦٩ هـ ، وخلت الديار ، وأنت بنو طيئ على الناس ، وشملهم البلاء منهم .

(١) قال المقرئ عنه في المقفى ، ص ٢١٩ : « حميدان بن حواش العقيلي ، ويقال فيه : حمدان .. والأول أشهر .. ولي دمشق من قبل العزيز بالله سنة ثمان وستين وثلاث مئة بعد ظفره بأفتكين الشرايبي ، وكان قسام إذ ذاك متغلباً على دمشق ، فلم يكن لحميدان مع قسام أمر ؛ فلم تطل مدته حتى وقع بينه وبين قسام خصام ، فأطرده العيارون من أصحاب قسام فخرج هارباً من البلد ، ونهبوا داره ؛ فقوي أمر قسام ؛ فجاءت قرامطة جعفر وإخوته ، فنزلوا على دمشق ، فمنعهم قسام من البلد ، وعمل على قتالهم ، فساروا إلى الرملة ؛ فولى دمشق بعد حميدان أبو محمود .. ويقال أنه ولي دمشق في سنة واحدة « وهي سنة ثمان وستين هذه » ظالم بن موهوب العقيلي ، والقرمطي ، ووشاح ، وحميدان ، وأبو محمود . »

على البلد فطرده قسام عن الولاية ونهب أصحابه ما كان في داره ، وخرج هارباً ، فتمكن قسام من البلد ، واستقامت حاله فيه ، واجتمعت إليه الرجال وكثر ما في يده وقويت شوكته ، وتضاعفت عدته .

وولي القائد أبو محمود البلد بعد حميدان في نفر يسير وهو صنيعة لقسام ، واتفقت النوية الحادثة ببغداد بين الديلم والعرب من بني حمدان ، وهروب أبي تغلب الغضنفر ابن حمدان في البرية والجبال إلى أن خرج إلى حوران ، فقصد دمشق ، ونزل عليها ، فمنع قسام من دخول أحد من رجاله إليها ، ووصل كتاب العزيز بالمنع له من البلد ، فسأل أبو تغلب عامل الخراج بدمشق أن يمكن أصحابه من ابتياع ما يحتاجون إليه من الأسواق ، فكلم العامل قساماً في ذلك ، فأذن له فيه ، ودخل أصحابه البلد وقد كان طمع أن يوليه العزيز ، وكان قسام قد خاف من ذلك وسعى قوم بينهما ، وكان أبو تغلب نازلاً بالمرّة ؛ فأقام بها شهوراً ؛ فشق على قسام مقامه ، وظن أنه يلي بالبلد ، فلما كان في بعض الأيام وقف رجل من العجم من أصحاب أبي تغلب في باب الجابية (وكان نشواناً) فجرد سيفه ، وقال : إلى كم يكون هذا الخيار .. فعظم ذلك على قسام وتخوف أن يكون لأبي تغلب سلطنة فيملكه ومن معه ، ففسد الأمر بينهما بهذا السبب ، وتقدم قسام إلى أصحابه يأخذ كل من يدخل من أصحاب أبي تغلب ، فكمنوا في خراب قينية ، فأخذوا منهم نحو سبعين رجلاً وقتلوا منهم جماعة ، وعاد من أفلت منهم إلى أبي تغلب عراة قد أخذت ثيابهم ودوابهم ، فلم يتمكن أبو تغلب من شئ يفعله ، وكتب إلى مصر بذلك ، فلما وقف ابن كلس الوزير على الكتاب أنهاه إلى العزيز ، فعلم العزيز أن هذا من تدبير الوزير وحيله .. وكتب قسام إلى مصر يذكر أن أبا تغلب قد حصر دمشق ، ومد يده في الغوطة . وخرج من مصر غلام لابن كلس (يقال له : الفضل ابن أبي الفضل) في عسكر كثيف للحيلة على أبي تغلب وإهلاكه ، ونزل الرملة ، وأوصل إلى ابن جراح سجلاً بولاية الرملة ، وقال: إن هذا أبا تغلب يريد أن يسير إليها ليأخذها بسيفه ، وأنا معين لك عليه، وكان

أبو تغلب قد رحل عن دمشق نحو الغوار ونزل عليه ، وسار الفضل ونزل طبريا وراسل أبا تغلب في الاجتماع معه وكان الفضل يهودياً أولاً ، وكان أبوه طبيباً ، فكبرت نفس أبي تغلب أن يجلس معه على سرير من جهة اليهودية ؛ فأعلم بذلك ؛ فقال : كل منا على سرير.. فاجتمعا في طبرية وجلس كل منهما على سريريه ، وجرت بينهما محاورات : على أن الرملة ولاية لأبي تغلب ، ويقلع ابن الجراح منها ، وأنا معين لك عليه .. وقرر ذلك في نفسه ، وسار الفضل إلى دمشق يجبي الخراج ، ويفضه في الجند ، وزاد في العطاء ، وزاد في جنده وعسكره ، وسار عن دمشق ، وأخذ طريق الساحل .. وشرع أبو تغلب في أمره ، وتوجه نحو الرملة وقد اجتمع إليه بنو عقيل مع شبل بن معروف العقيلي ، فهرب ابن جراح منهما ، وجعل يحشد العرب ثقة بجمونة الفضل له .. وكذلك أبو تغلب مثله أيضاً .

فلما توجه الفضل على الساحل ، نزل على عسقلان ، وقصد ابن جراح أبا تغلب بعسكره : سارت بنو عقيل مع شبل بن معروف ، واصطفوا للقتال ، وكان معه مغاربة كثيرون ، فقالوا لأبي تغلب : قد اجتمع عسكر الفضل مع عسكر ابن جراح .. فقال هذا جرت الموافقة بيني وبينه .

فلما نظر المغاربة الذين كانوا مع أبي تغلب إلى مغاربة الفضل قد أقبلوا مع عسكر ابن الجراح : حملوا يريدون الدخول معهم ، فقالوا لأبي تغلب : احمل هؤلاء من قبل أن يدهمك الأمر .. فبقي متحيراً وعلم أن الحيلة قد تمت عليه ، فلما حمل المغاربة الذين كانوا معه ، وساروا مع أصحابهم ، وأقبل العسكران على عسكر أبي تغلب : انهزم جميع من كان معه ، ثم انهزم هو ؛ فلم يدر في أي طريق يأخذ وكانت عدته في الغاية جميعها ، وذكر أنه لم يتقدم إليه رجل إلا ضربه .. ولم يزل على ذلك حتى تبعه رجل من أصحاب ابن جراح يقال له : منيع .. فصاح إليه : يا إنسان اسمع مني أنا ألحق بك .. وظن أن كلامه حق . فقال له : هذه الخيل التي أمامك خيلنا ، فلو وقفت عليّ لنجوت بك .. وكان يتكلم معه وهو يقرب منه ، ويده رمح ، فطول الرمح وهو يكلمه وهو يظن ألا يقدر عليه ،

فلم يمكنه أبي تغلب في شيء ، فطعن عرقوب فرسه ، فوقف به الفرس فأخذه وسار به إلى ابن جراح ، فأركبه جملاً وأشهر بالرملة ، وقتله ، وأحرقه .. وذلك في صفر سنة ٣٦٩ هـ .. وملت الديار لابن جراح ، وأتت بنو طيئ على الناس وشملهم البلاء منهم . وكان العزيز قد خاف من الملك عضد الدولة فناخسرو بن بويه ، خوفاً شديداً ؛ لأنه كان عازماً على إنفاذ العساكر إلى مصر ، فعاقه عن ذلك الخلف الجاري بينه وبين أخيه واشتغاله به في سنة ٣٦٩ هـ» (١) .

قال ابن القلانسي : « ولما تم للفضل ما دبره على أبي تغلب ، ووافق الأغراض : عزموا على أعمال الحيلة على ابن جراح ؛ لأن أمره كبير ، وشره ظهر .. وتوجه إلى قسام ليعمل أيضاً عليه ، وأظهر أنه يريد المسير إلى حمص وحلب ليأخذهما ، وجمع بني عقيل ، ونزل بظاهر دمشق .. وعلم ابن جراح بمكاتبته لبني عقيل ، فأخذ حذره ، وأمر أصحابه بالرحيل ، وركب أصحاب الفضل ، وأخذوا من العرب تقدير خمس مئة فارس ، وسار ابن جراح عن دمشق .. وانضمت بنو عقيل إلى الفضل مع شبل وظالم في صفر سنة ٣٧٠ هـ ، وبطل كل ما أراد الفضل عمله من الحيلة على ابن جراح وقسام ، ورحل عن دمشق في طلب ابن جراح وجدّ في طلبه ؛ فبعد عنه ، وكتب ابن جراح إلى مصر يتلطف في أمره ؛ فورد الأمر على الفضل بالكف عنه .. وعاد الفضل إلى مصر ، وعاد ابن جراح إلى فلسطين ، فأخربها وأهلك من فيها .. وكان الرجل يدخل إلى الرملة يطلب فيها شيئاً يأكله فلا يجده ، ومات الناس بالجوع ، وخربت الأعمال » (٢) .

(١) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ص ٢١ - ٢٣ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤ .